الورقة الرابعة

الضيـــــاع في حفـــر الباطـــن التـــــرحيـــل

عبد الكريم العبيدي

انا اعشى دائمي اتلمس الظلام من حولي فتدلني اصابعي البلهاء على حضور غامض لاشياء شبه مغيبة . اجمع اشكالها الغريبة ببطء فاتعرف على بعضها واضمها الى عشوتي . احيانا تفلت مني فتمسي لغزا وحين امسدها لكفي اليائستين متوهما ان ضحكتها المجلجلة ستكف عن مراوغتي . تصمد وتضاعف من عنادها فادرك بعد حين ان ذلك النوع من الوهم هو ليس من حصتي . ولكن هذا العناء المكرر في كل ليلية دفع ببصري الى التطرف . عزل شكواه عن قناعة محببة كادت ان تروض لي حلا توافقيا لولا ذلك الاخفاق .

انا اعشى دائمي اتلمس الظلام من حولي فتدلني اصابعي البلهاء على حضور غامض لاشياء شبه مغيبة . اجمع اشكالها الغريبة ببطء فاتعرف على بعضها واضمها الى عشوتي . احيانا تفلت مني فتمسي لغزا وحين امسدها لكفي اليائستين متوهما ان ضحكتها المجلجلة ستكف عن مراوغتي . تصمد وتضاعف من عنادها فادرك بعد حين ان ذلك النوع من الوهم هو ليس من حصتي . ولكن هذا العناء المكرر في كل ليلية دفع ببصري الى التطرف . عزل شكواه عن قناعة محببة كادت ان تروض لي حلا توافقيا لولا ذلك الاخفاق .

احيان يصبح الاحساس بالنهاية دافعا حياتيا مهما . ويكون الخضوع اليه وتنفيذ تصوراته المتلاحقة اشبه بالتحرر التام من وهم الموت القادم في جبهات القتال .

بدات اشعر انني اتحرر بالفعل من شراكات فاسدة وقيود وانتماءات عقيمة ، وبات علي الان ان اسدد مستحقات ((اخلاقي القديمة)) ونظامها المعري في المخلوع !..

كنت مرحا في ذلك النهار لسبب لا اعرفه .. صعدت في سيارة نوع ((نيرن دك النجف)) كان ذلك النوع من السيارات قد تسيد الرحلات بين بغداد والبصرة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي . ثم رحلت بعد ذلك الى المحافظات ثم للاقضية والنواحي والقصبات الحدودية .

كان اغلب الركاب هم من شباب اهل الريف . ولم اجد صعوبة في تصنيفهم من كثرة ما يرتدونه من ثياب ذات الوان صارخة ومتناقضة . اضافة الى لهجتهم وسلوكهم داخل ((النيرن)) . اما الشيوخ والعجائز فكانت رائحة ((ام السودان)) تعبق من ثيابهم .

تخلصت من السيطرة العسكرية باجازة مزورة ونزلت قرب بوابة جامعة البصرة واتجهت الى يسارها عبر شارع ترابي نحو القرية التي شاءت الاقدار ان ازورها مرارا .. طرقت الباب فخرجت ((ام صبحة) صاحبة البيت وحيتني كثيرا قبل ان اسلم عليها .. قالت هناء قلقة عليك .. ستفرح كثيرا بقدومك . ثم دارت راسها نحو الداخل وصاحت : انه زوجك ...

كنت كثيرا ما اشعر بالخجل والمرارة من تلك الزيارات الخاطفة، ربما لانها كانت تذكرني باحباطي الحياتي المستديم طيلة فترة زواجي القصيرة . فقد فشلت زوجتي —او فشلنا معا— في المواءمة بين دراستها في كلية الهندسة وبين دورها في البيت ككنه فعرضت علي الانتقال بمفردها الى بيت اهلها لمواصلة دراستها في غرفتها القديمة . ولكنها اكتشفت سريعا ان تلك الغرفة لم تعد ملكها بل زحفت عليها العديد من قطع الاثاث وما عاد اهلها ينظرون اليها كطالبة جامعية بل كزوجة لرجل عاطل عن العمل .. اقترحت عليها السكن في احد الاقسام الداخلية للطالبات فرفضت بشدة . قالت انه يشبه المبغى ! .. عندها اتفقنا على مشاركتها لزميلتين لها في السكن في بيت الارملة ((ام صبحة)).

خرجت زوجتي مذعورة . كانت متلهفة لرؤيتي ومعرفة اخباري . وكانت تميل الى اطالة لقائنا اليتيم عند الباب . ولكنني قلصت حواري المغتصب كالعادة واعطيتها كل ما املك من المال . قلت لها اطمئني . انا في المعسكر حاليا . وقد تنتهي الحرب قبل ان يفكروا بزجي في جبهات القتال . اهتمي بنفسك . اريدك ان تصبحي مهندسة هذه امنيتي .

كنت احرص دائما على ابعادها عن ضياعي . وكنت اكذب احيانا واعرف انها تصطاد كل كذبة .. حدقت في وجهها كثيرا ثم عدت .. ظلت هي واقفة تتابع اختفائي بين عدد من التلول التي كان يديمها الجنود باكياس من الرمل ليضعوا عليها المدافع الرشاشة .

صعدت في سيارة اجرة قديمة دون ان اسال السائق عن نهاية رحلته . كان صوت المذياع يختلط مع حوارات الركاب التي كانت تحصي عددا من الدعوات والعروض والتصريحات التي دعت الى انهاء الاحتلال .. بعض الركاب كان يتجرأ احيانا ويبدي استيائه . والبعض الاخر كان يمرر غضبه الى باشارات وعبارات غامضة . حتى غدت مثل هذه المشاهد مألوفة مع تصاعد وتيرة الاستعدادات للحرب وكثرة المقابلات واللقاءات شبه اليومية التي احتكرت فترة البث الاذاعي والتلفزيوني محليا ودوليا .

وصلت السيارة الى كراج القرنة في ((الداكير)) شرق مدينة العشار فنزلت منها وهرعت الى اقرب مقهى . لاحظت ان روادها يتدافعون نحو شاشة التلفزيون لسماع خبر عاجل .

جلست وحدي على تخت خشبي مقابل الشارع وطلبت شايا .. كنت اشعر ان تسارع الاحداث لايعنيني . وان متابعتها بذلك القدر من الاهتمام الذي يبديه الناس يبعث على الرثاء .. كنت على يقين حقا ان الحرب ستقع لا محالة . وانني ساحصل على حصتي الكافية من ويلاتها ، ولذلك كنت اتأهب لوقوعها لا الى معجزة اطفاء فتيلها...

مع حلول المساء غادرت المقهى دون ان اعرف الى اين ساذهب !..

قلت هل بات العيش في خنادق القتال يبدو اكثر جدوى ؟!. هل كتب علي ان ابقى ابن حروب ؟ .. ثم توجهت الى كراج ((ام البروم)) بخطى متثاقلة. في البيت ما زالت اجواء ((الصدمة)) تخيم على الوجوه . امضيت ليلة على سريري وقررت ان امارس لعبتي القديمة : التحديق في سقف الغرفة !

وصلت في فجر اليوم التالي الى ساحة العرضات مبكرا . لم الحظ في سماء المدينة غرا با كي اتحسس الشؤم (!) ولكن غيابي لمدة عشرة ايام كان يثير قلقي . راقبت عددا من الجنود كانوا يتجمعون قربي وتعرفت على ((العمارتلي)) حالا . كان يدخن باسراف وبدا وجهه شاحبا . وحين دعينا الى التجمع داس اخر سيكارة كانت بيده فاحزنني انه لايرتدي حذاء رغم قسوة البرد.

بدا رأس عرفاء الوحدة بقراءة اسمائنا وسط لغط الجنود وتذمرهم ، ثم احصانا بعصا التبختر التي كان يشير بها الى وجوهنا ، وما ان فرغ من التعداد حتى فوجئنا بفصيل الانضباط العسكري التابع للوحدة وهو يحيط بنا من كل جانب . ويأمرنا بالمسير الى داخل المعسكر تساءل عدد من الجنود عن اسباب مغادرتنا المبكرة لساحة العرضات وطلب بعضهم بصوت عال من افراد الانضباط ان يخبروه .. لم يطل الامر كثيرا . عرفنا ان وسيلتهم الوحيدة لضمان قذفنا في جبهات القتال هي زجنا في السجن لحين اتمام اجراءات النقل والاستيلاء على عدد من الحافلات الاهلية بطريقة ((السخرة)) لتقلنا الى الموت !

وصلنا تحت تهديد السلاح الى ملجا كبير كان قد تحول الى سجن للوحدة .

سارع احد الحراس الى فتح باب لايتجاوز ارتفاعه المتر . ثم بدأوا بقذفنا الواحد تلو الاخر الى داخل السجن .

مرت الدقائق الاولى صاخبة ومليئة بالحوارات المتشنجة والمتداخلة . وكانت عبارات الاحتجاج طاغية ومتسارعة . غير ان اهم ما تجاوز سعة تحملنا جميعا هو حالة الاختناق التي حصلت نتيجة تكدسنا المضغوط بين جدران السجن . فارضية الملجأ التي كانت تشغلها اعداد كبيرة من الهاربين ، لم تعد تسع الان لنصف هذا العدد الكبير من المحتجزين ، مما احال اوضاع تكدسنا العنقودي الى فوضى . كانت كل دقيقة . في ذلك المكان تبدو ثقيلة ومكتظة بمئات من الاصوات والزعيق والحشرجة ونوبات السعال والبصاق والتقيء . وكان لهاثنا المحموم في البحث عن الهواء يزيد من قسوة تنفسنا المتقطع وسط روائح اجسادنا وافواهنا التي امتزجت بروائح البول والخراء المنبعثة من صفائح كانت مركونة في زاوية السجن .. ولذلك سرعان ما حدثت حالات الاغماء والاختناق وتعالى صراخ حاد هز جدران الملجأ . مما دفع بآمر سجن الوحدة الى اصدار امرا بفتح باب السجن ونقل عدد من المحتجزين الى ملجأ اخر .

ولكن الامر لم يتحسن كثيرا عدا ان قدرتنا على التنفس باتت افضل قليلا . غير ان اوضاعنا المساوية استمرت في تداخلاتها الغريبة . ولم يتمكن احد من العثور على مكان للجلوس او القرفصة ...

بدأ الضوء يخبو . وعكست كوة في الجدار بحجم طابوقة لون الغروب . فانتابنا جميعا رعب المبيت في هذه الليلة بذات التداخلات الصاخبة التي ارتبطنا بها منذ ساعات الصباح الاولى .

كنت اكثرهم صمتا . ولولا حالة الاختناق التي جعلتني الهث مثلهم في البحث عن الهواء لما تذكرت انني قد فتحت فمي . ولكنني شعرت بالجوع والعطش قبل ان يصرخ احدهم مطالبا بوجبة طعام وطاسة ماء .

ثم تعالت اصوات المطالبة بالطعام والماء ووصلت الى حد الزعيق والهتاف والشتائم . ولم تخفت الا بعد ان اخبرنا احد افراد الحرس بصوت عال . انه سيتم اخراجنا من السجن لمدة نصف ساعة لقضاء حاجاتنا وتوزيع الصمون والماء كوجبة طعام في ذلك النهار المميت !

فرحنا كثيرا . حتى ان بعضنا راح يزغرد ويصفق . وحين تم اخراجنا الواحد بعد الاخر حدقنا في السماء ورفعنا رؤوسنا وباعدنا بين ايدينا لنحصل على اكبر كمية ممكنة من الهواء .

قضينا ذلك النصف من الساعة بالتنفس العميق وشرب الماء وتسلم ((الصمونة الصخرية)) . وتغوطنا خلف حائط مهدم في وضع متقارب ومزر ثم عدنا الى اشتباكنا داخل باحة السجن المظلمة..

لم احصل على وضع افضل مما كان بل على العكس دخلت متأخرا فانحشرت في زاوية ضيقة قرب الباب وشعرت بثقل الاجساد التي عصرتني ، ولم اعثر الا على فسحة ضيقة بين ردفين متلاصقين فدسست انفي بينهما وعشت في ما يشبه الغيبوبة .

كانت يدي اليمنى محشورة بين عدة بساطيل متشابكة فيما اختفت يدي اليسرى بين مجموعة من الكتل اللحمية المضغوطة . وكنت مقلوبا على الجهة اليمين . وكثيرا ما حاولت طيلة تلك الليلة ان اجد لقدمي منفذا بين الاكداس البشرية المتشابكة .

ولكنني لم اكن محبوسا بكامل ادميتي ، فثمة جانب منها كان يقلب صفحات الضياع التي عشتها متسكعا في الشوارع والاسواق ، ويعيد بالاسود والابيض صخب الليالي المكررة التي بددتها في البارات والملاهي .. تذكرت الليلة المسحورة التي قضيتها في المقبرة . وكدت اسمع قهقهات صاحبي المعاق ومواويل ملك الهروب وساحراته .

لم يأت فجر اليوم التالي .. نحن الذين هرعنا نحوه واستجدينا انفاسه بسيل من التوسلات ، كي نرى نفسا منها ، وحين لاح لنا خيط واهن منه ، تنافسنا على جره في صفوف متراصة وكاننا ثيران هائجة حتى اوصلناه الى باحة السجن .

كان ذلك الفجر هو ارفع وسام نحصل عليه بعد تحطيمنا لاخر دلالة بشرية ظلت تمثلنا طيلة ليلة!

لم اشعر في صبيحة ذلك اليوم باي جزء من جسدي مازال يحتفظ بادميته . كنت اشبه بكتلة مطعوجة ومنقوعة بالالم .. وحين حاولت ان اقاوم ذلك الشعور الكارثي ادركت أنني اول من سيسخر من تلك المقاومة .. ظل انين المحتجزين والهاربين معا يصنع خوارا مخيفا بين جدران الملجأ العارية، ولم اعد احتمل تصور ملامح وجه امي الذي باغتني فجأة .. شعرت بهول الصدمة التي تنتظرها حين تفتح باب غرفتي ولم تجدني . وماذا لو انني لم اعد بعد شهور . وربما لن اعود !؟

بعد دقائق ، سمعت نداءات واصواتاً تتقاطع ثم تحجبها اصوات محركات السيارات والمنبهات ، واحسست ان احدى العربات تقترب من باب الملجأ تصطدم به .

صاح احد المطمورين بين بقية الاجساد المكبوسة : نقله ومن بعيد ، سمعت صوت ((العمارتلي)) يرد عليه بوهن((خايب لو ايذبونه بجهنم ولا طركاعة امس .. بالعباس ما ظل عرج صاحي ويريدوني اعارك .. انه وين والعرك وين(!))..

يتبع

صاحب الجمعية يربي حيوانات مفترسة في داره القديمة !

اول جمعية للرفق بالحيوان في العراق والعالم العربي تؤسس في الموصل

الموصل / نوزت شمرين

في الموصل بيت شرقي قديم لا تتجاوز مساحته المئتي متر مربع ، يقع ضمن الحي السكني في منطقة الدواسة على الجانب الأيمن لمدينة الموصل ، يبدو من الخارج مهجوراً لتصدع جدرانه ومنظره الموحي بالانهيار ، أضطر صاحبه بعد يأسه من دائرة بلدية الموصل في أن يجمع ضمن أمتار باحته القليلة مختلف أنواع الحيوانات المفترسة والأليفة ! ، باختصار شديد هذه هي حديقة الحيوانات في الموصل!!؟ .

هناك التقينا بالأستاذ ضرغام شريف الحامد القريشي رئيس جمعية الرفق بالحيوان العراقية وصاحب ثاني حديقة حيوان من نوعها في العراق بعد حديقة حيوانات الزوراء في العاصمة بغداد ، سألناه عن سر حبه للحيوانات وتأريخ افتتاح هذه الحديقة ؟ :

-منذ صغري وأنا مولع بعالم الحيوان الجميل والمسالم ، وكان لعائلتي نفس العشق مما هيأ لي المحيط المناسب في مزاولة هوايتي باقتناء الحيوانات وتربيتها ، ثم تطور الأمر وبدأت أحلم بإنشاء أول حديقة حيوانات عامة في الموصل ، وتحقق لي ذلك بالفعل عندما افتتحت هذه الحديقة عام ١٩٧٨ أي قبل حوالي سبعة وعشرين عاما من الآن بعد أن جبت البلاد طولاً وعرضا لجلب أنواع تستحق المشاهدة من الحيوانات بالإضافة إلى تلك التي استوردتها من الدول المجاورة .

(خروف بستة أقدام وعجل قزم) !

•ما هي أصناف وأنواع الحيوانات التي تضمها حديقتكم ؟ وكيف تعملون من أجل المحافظة عليها خصوصاً وأن هذا المكان لم يعد ملائماً كحديقة للحيوانات ؟

- كما ترى فأنني ولضيق المكان احتفظ فقط بنماذج قليلة من الحيوانات أما الأخرى فأنني قد وزعتها على مناطق متفرقة من الموصل لكي أضمن لها السلامة والبيئة المناسبة . عموما الأصناف التي لدينا هي المفترسة والأليفة إضافة إلى تلك المصابة بالتشوهات الخلقية مثل الخروف ذي الست أرجل والعجل القزم !!ولدينا كافة أنواع النسور المعروفة مثل النسر العربي والأمريكي والمصري وكذلك العقاب والحدية وألبو هكب والشاهين والباشق ، ومختلف أنواع الصقور وأهمها (الطائر الحر) ثم باقي الطيور كالطواويس والببغاوات ومالك الحزين . وأنواع أخرى كثيرة مثل الذئاب والثعالب والأفاعي والخنازير والقردة والجمال وغيرها . علماً أنني قمت بإهداء الكثير من الحيوانات إلى متحف التاريخ الطبيعي في الموصل لتحنيطها وعرضها على الناس خدمة للفائدة العامة بالإضافة إلى تقديم خبرتي لهم في التعريف بالحيوانات وتصنيفها .

أما عن تغذية الحيوانات والمحافظة على سلامتها ، فأنا أقوم بشراء الطعام لها من السوق المحلية حسب نوعية الغذاء المناسبة له وهناك أطباء بيطريون يشرفون عليها من الناحية الصحية إضافة إلى تسخير خبرتي المتراكمة في علاجها إذا لزم الأمر .

وبالتأكيد المكان غير ملائم البتة ليكون حديقةً للحيوانات فهو عبارة عن بيت قديم متهالك ضمن حي سكني ، ومع ذلك فقد ظل ومنذ عقدين من الزمن يستقبل بكثافة عالية المواطنين من باحثين ومهتمين وطلاب مدارس وكليات . ولقد حاولنا مؤخراً وبكل السبل إقناع مديرية بلدية الموصل في أن تؤجر لنا مساحة كافية من الأرض في منطقة الغابات لنستخدمها كحديقة للحيوانات نظراً للبيئة الملائمة هناك ، ومع الموافقة المبدئية التي حصلنا عليها لكن آمالنا تظل مصطدمة بمصالح بعض الانتهازيين الذين يحاولون ولأغراض شخصية منعنا من توفير المكان الملائم لإنشاء الحديقة النموذجية .

فكرة قديمة

•ماذا عن جمعية الرفق بالحيوان ؟ ومتى نشأت لديكم هذه الفكرة ؟

- كانت فكرة إنشاء الجمعية تراودني باستمرار منذ زمن بعيد ، لأنني كنت ومازلت على ثقة تامة بأن إنشاء جمعية للرفق بالحيوان هو شيء حضاري ويدل على وعي شعبنا وثقافته الكبيرة على المستوى الإنساني ولأنها ستساهم في إنقاذ الحيوانات البرية والنادرة من شبح الانقراض التام من جهة إضافة إلى الخدمة السياحية التي ستقدمه للمدينة وللعراق برمته إن هي أشرفت على حديقة نموذجية للحيوانات من جهة أخرى . وهكذا بادرت العام الماضي في استحصال الموافقات الرسمية من محافظة نينوى لإنشاء أول جمعية تعنى بالحيوان ليس في العراق وحسب بل في المنطقة العربية بعد أن وضحت لهم أهدافها ثم وضعت النظام الداخلي الخاص بها بعد الإطلاع على برامج جمعيات الرفق بالحيوان العالمية والاستفادة من مشورة المختصين بهذا الجانب .

•ما هي أهداف ومهام هذه الجمعية؟

- تهدف جمعيتنا إلى توعية الناس للرفق بالحيوان من خلال تقديم الإرشاد لهم عبر وسائل الأعلام المختلفة وعقد الندوات . وكذلك إجراء البحوث والدراسات حول أساليب المحافظة على الحيوانات في البيئة العراقية . إضافة إلى العمل مع الجهات المختصة من أجل منع صيد الحيوانات بالوسائل المحرمة لأنها ستؤدي إلى انقراضها وبالتالي تبدد ثروة وطنية لا يمكن تعويضها أبداً ، وكذلك لما في ذلك من ضرر قد لا يتوقف أثره عند الحيوان فقط بل قد يمتد ليشمل الإنسان أيضاً من خلال إحداث الخلل في مكونات النظام البيئي . ونحن عازمون على الاستفادة من تجارب المنظمات الدولية وجامعات القطر ومؤسسات الطب البيطري في مجال المحافظة والعناية بالحيوانات ، وتقديم المشورة لمربي الحيوانات المهددة بالانقراض وتتلخص مهام الجمعية بإصدار نشرات دورية والاستعانة بوسائل الإعلام المختلفة من أجل توعية المواطنين وتحميلهم مسؤولية الحفاظ على الحيوانات والعناية بها ، والاستعانة بوزارة الزراعة وهيئات الطب البيطري في تسهيل مهامنا في مجال توفير الدعم البيطري ، وإصدار بطاقات صحية للحيوانات بعد فحصها وتطعيمها باللقاحات اللازمة وبصورة دورية ، بالإضافة إلى منح تراخيص للمحال التي تمارس بيع وشراء الحيوانات وتشجيع كافة المربين على إتباع الأساليب العلمية والإنسانية في التربية مع فتح القنوات مع الجامعات العراقية المعنية بهذا الجانب للمساهمة في رفد الجمعية بالبحوث والدراسات والإرشادات التي من شأنها تطوير عمل الجمعية ، والتنسيق مع متاحف التاريخ الطبيعي العراقية لوضع بيانات وإحصائيات بأنواع الحيوانات الموجودة في العراق والتعرف على المهدد بالانقراض منها ليمكن التصدي لذلك .

حديقة للحيوانات

•هل توجد مشاريع مستقبلية خاصة بالجمعية؟

أول مشروع نسعى إلى تحقيقه في الوقت الحالي هو بناء حديقة للحيوانات بمساحة لا تقل عن ستة عشر دونماً واقترحنا منطقة غابات الموصل على ضفاف نهر دجلة موقعاً له ، على أن يشتمل هذا المشروع على حديقة متكاملة للحيوانات ومتنزه للعائلات وملاعب للأطفال ومراسي للزوارق ومشفى بيطري ومركز للاتصالات وساحة كبيرة لوقوف السيارات . لكن هناك عقبات كثيرة تعترض طريق عملنا منها كما ذكرت سابقا يتعلق بدائرة بلدية الموصل إضافة إلى أننا قمنا بمخاطبة وزارة التخطيط لمرات عديدة من اجل الحصول على دعمها وتعاونها معنا لكننا لم نتلق منها أي رد بالرغم من إننا أعلمناها بتشكيل الجمعية وزودناها بجميع المستمسكات المطلوبة .